

المحاضرة الرابعة: المسرح الملحمي - نحو مسرح سياسي ونقدي

مقدمة:

استكشفنا في المحاضرات السابقة دور ووظيفة المسرح كأداة للتغيير الاجتماعي، من خلال تيارات مسرحية ركزت إما على تصوير الواقع الخارجي (الواقعية والطبيعية) أو على استكشاف العوالم الباطنية والذاتية (الرمزية والتعبيرية). الآن، ننتقل إلى تيار مسرحي مختلف جذرياً في أهدافه وتقنياته:

المسرح الملحمي (Epic Theatre): نشأ هذا التيار بشكل أساسي في ألمانيا خلال فترة جمهورية فايمار (عشرينيات وأوائل ثلاثينيات القرن العشرين)، وارتبط اسمه بشكل وثيق بالخرج والكاتب المسرحي الألماني برتولت بريخت (Bertolt Brecht)، الذي يعتبر منظره ومطبقه الأبرز.

لم يكن هدف المسرح الملحمي مجرد تصوير الواقع أو التعبير عن الذات، بل كان يهدف بشكل أساسي إلى تحليل الواقع الاجتماعي والسياسي بشكل نقدي، وتحفيز المتفرج على التفكير واتخاذ موقف، وبالتالي المساهمة في التغيير الاجتماعي. رأى بريخت، المتأثر بالفكر الماركسي، أن المسرح التقليدي (الذي أسماه "المسرح الدرامي" أو "الأرسطي") يعمل على تغييب وعي المتفرج من خلال دفعه إلى الاندماج العاطفي مع الشخصيات والأحداث، وتقبل ما يراه على المسرح كأمر حتمي وطبيعي. في المقابل، سعى بريخت إلى خلق مسرح "غير أرسطي" يكسر هذا الإيهام، ويحافظ على مسافة نقدية بين المتفرج والعرض، ويشجعه على التساؤل والتحليل. مبادئ وتقنيات المسرح الملحمي لتحقيق أهدافه، طور بريخت مجموعة من المبادئ والتقنيات التي تميز المسرح الملحمي، والتي تعرف غالباً بتأثير "التغريب" (Verfremdungseffekt) أو "الألفة المنزوعة" (Alienation Effect). الهدف من التغريب هو جعل المؤلف يبدو غريباً، ودفع المتفرج إلى رؤية الأحداث والشخصيات والسياقات الاجتماعية كأمر تاريخية قابلة للتغيير، وليست كحقائق أبدية.

من أبرز هذه التقنيات:

1. كسر الجدار الرابع:

يتوجه الممثلون أحيانًا بالحديث مباشرة إلى الجمهور، معلقين على الأحداث أو شارحين دوافع الشخصيات، مما يكسر إيهام أن ما يحدث على المسرح هو عالم منفصل ومكتفٍ بذاته.

2. السرد والحكي:

بدلاً من الاعتماد الكلي على الحوار الدرامي، يستخدم المسرح الملحمي عناصر سردية، حيث يقوم راوٍ أو شخصيات معينة بسرد أجزاء من القصة أو التعليق عليها، مما يذكر الجمهور بأنهم يشاهدون عرضاً مسرحياً وليس واقعاً حقيقياً.

3. الأغاني واللافتات:

4. تتخلل المسرحيات الملحمية أغاني (Songs) لا تندمج بالضرورة مع السياق العاطفي للمشاهد، بل تقدم تعليقاً نقدياً أو تلخيصاً للأفكار الرئيسية. كما تستخدم لافتات أو إسقاطات ضوئية لعرض عناوين المشاهد أو معلومات تاريخية أو اقتباسات، مما يقطع تدفق الأحداث ويشجع على التفكير.

5. التمثيل "المغرب":

6. يطلب بريخت من الممثل ألا يتقمص الشخصية بشكل كامل ويندمج فيها عاطفياً، بل أن "يظهر" الشخصية ويقدمها للجمهور من منظور نقدي. يجب على الممثل أن يحافظ على وعيه بأنه ممثل يؤدي دوراً، وأن يشير إلى الجوانب الاجتماعية والتاريخية للشخصية التي يمثلها.

7. البنية الحلقية: (Episodic Structure)

تتكون المسرحية الملحمية غالباً من سلسلة من المشاهد أو الحلقات المنفصلة نسبياً، كل حلقة تقدم موقفاً أو فكرة معينة. لا يوجد تركيز على الحبكة المتصاعدة والحل النهائي بالمعنى التقليدي، بل على تحليل المواقف والعلاقات الاجتماعية في كل مشهد.

8. الكشف عن آليات المسرح:

لا يحاول المسرح الملحمي إخفاء الجوانب التقنية للعرض (مثل الإضاءة، تغيير الديكور، الموسيقيين)، بل قد يكشفها عمداً للجمهور، ليذكرهم بأنهم في مسرح يشاهدون بناءً فنياً وليس حقيقة.

9. مسرحيات بريخت كأمثلة تعتبر مسرحيات بريخت نفسها أفضل تجسيد لنظريته في المسرح الملحمي. في أعمال مثل "أوبرا الثلاثة قروش" (The Threepenny Opera) " بالتعاون مع الملحن كورت فايل)، و"الأم شجاعة وأبنائها" (Mother Courage and Her Children)، و"حياة جاليليو" (Life of Galileo)، و"الإنسان الطيب من سيتشوان" (The Good Person of Szechwan)، و"دائرة الطباشير القوقازية" (The Caucasian Chalk Circle)**، طبق بريخت تقنيات التغريب المختلفة لتناول قضايا اجتماعية وسياسية وأخلاقية معقدة.

على سبيل المثال، في "الأم شجاعة"، يقدم بريخت شخصية الأم التي تحاول الاستفادة من الحرب (حرب الثلاثين عامًا) لتحقيق مكاسب مادية، لكنها تفقد أبنائها واحدًا تلو الآخر بسبب نفس الحرب. يستخدم بريخت الأغاني والسرد وتقنيات أخرى لمنع الجمهور من التعاطف السلبي مع الأم، وتشجيعهم على تحليل سلوكها في سياقه الاجتماعي والاقتصادي، والتفكير في طبيعة الحرب وتأثيرها المدمر.

تأثير المسرح الملحمي هائل على المسرح العالمي في القرن العشرين وما بعده. ألهمت أفكار بريخت وتقنياته أجيالاً من الكتاب والمخرجين الذين سعوا إلى خلق مسرح ملتزم سياسيًا واجتماعيًا، ومسرح يتحدى الأشكال التقليدية ويحفز وعي الجمهور النقدي. يمكن رؤية تأثير المسرح الملحمي في أعمال كتاب مثل جان جينيه، وبيتر فايس، وأوجستو بوال، وفي العديد من التجارب المسرحية الطليعية والمعاصرة. على الرغم من أن بعض جوانب نظرية بريخت قد تعرضت للنقد أو المراجعة، إلا أن إسهامه الأساسي في التأكيد على البعد الاجتماعي والسياسي للمسرح، وفي تطوير لغة مسرحية نقدية ومغايرة، لا يزال ذا أهمية كبرى حتى يومنا هذا. في المحاضرة القادمة، سننتقل إلى تيار مسرحي آخر ظهر في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وهو مسرح العبث، الذي عبر عن شعور عميق بالضيق وفقدان المعنى في عالم بدا وكأنه قد فقد كل منطقته ونظامه. (يتبع في المحاضرة الخامسة: مسرح العبث - صدى عالم ممزق)

